مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 12 العدد: 04 السنة 2020 ص 296 - 314

تاريخ الإرسال: 2019/11/22 تاريخ القبول: 2020/08/31
تاريخ النشر: 2020/09/20

الصحراء والرواية النسوية السعودية

Desert and the Saudi feminist novel

بلقاسم زوقار[1]، إشراف: أ.د. علي ملاحي[2]
جامعة يحي فارس المدية، belkacemzouggar1966@gmail.com[1]
جامعة الجزائر2، Doc_ali@hotmail.fr

الملخص:

يكون يفضل حسن المؤذن عبارة كتابة الصحراء على عبارة أدب الصحراء، لأسباب أساسية منها أن العبارة الأولى أوسع وأشمل، و لعل من الأعمال النّسوية السعودية التي تأتي في هذا السياق، وتختلف عنه، رواية أمل الفاران غوّاصو الأحقاف، حيث تتناول حياة الناس في الأحقاف وهي منطقة غامضة جغرافياً، وسياسياً، قبيل تشكل الدولة الحديثة. ما يجعل الرواية في سياق الروايات المذكورة هنا هو تناولها حقبة ما قبل النفط، أما ما يجعلها مختلفة عن سابقاتها فكونها تتوقف عند تخوم تشكل الدولة.

الكلمات المفتاحية: التمثلات ـ أشكال السرد ـ أدب الصحراء .

Abstract

Hassan al-Muezzin prefers the phrase **desert writing** over the phrase **desert literature**, mainly because the first phrase is broader and more comprehensive. Perhaps one of the Saudi feminist works that come in this context is different from Amal al-Farran's story. Geographically and politically, just before the formation of the modern state. What makes the novel in the

context of the novels mentioned here is the pre-oil era. What makes it different from its predecessors is that it stops at the periphery of the state.

Keywords: Representations - Narrative Forms - Desert Literature.

بلقاسم زوقار: belkacemzouggar1966@gmail.com

1.مقدمة:

من يتمعّن في خفايا الشعر الجاهلي، يدرك ما كان للصحراء من أثر بالغ في حياة العربي في ذاك العصر فالصحراء كانت موطنه، فيها أقام بنيان شعره العظيم، فظهر و برز للعيان ذاك التمثل[1] في أشعاره، ومنها استقى صوره التي غرف منها هذا الشعر، "وفوق حبات رمالها استلقى يخاطب النجوم، ويأسى حُباً رحل على هودج مع نسائم الفجر الأولى ويقارع الأبطال، والوحوش، ويفخر، ويذم، ويتفجّع يتغزل ويصف كثيرا ويغلب على وصفه بيئته الصحراء، و كأنه غمس فيها ريشته فأبدع أروع الصور"[2].

عند قراءتنا لكتاب الصحراء في الشعر الجاهلي للدكتورة مها قنوت، أدركنا حقيقة هذا التعلق، هذا الارتباط الوثيق بين المبدع والصحراء، فكتابها غاية في الجمال بينت من خلاله أثر البادية في الحياة الجاهلية، وأثر الصحراء على الإبداع و كيف تطوره ويعتقد البعض أن الصحراء بيئة جافة لا تبعث على الإبداع في ثنايا الشعر الجاهلي، اكتشفنا قوة أخيلة الشعراء في تصوير مشاهد وصور مهمة ما اتصل منها بالطبيعة أو الحيوان أو ما كان له صلة بالمشاهد الإنسانية الصرفة.

هذا ما كان في ديوان العرب: الشعر، وفي أبهى عصورها العصر الجاهلي، فهل هذا يعني أن المبدع توقف عن الحديث عن الصحراء، ولم تظهر في

إبداعاته؟ هل غلبته المدنية فتاه في وصفها وترك الصحراء؟ وإن ما يزال موجودا هذا التعلق، فأين يكمن في الشعر أم النثر؟ وما أثر الصحراء في بث القيم والأخلاق في نفس المبدع؟ ما طبيعة الصحراء؟ ولم تبعث على الإبداع؟ وهل الإبداع اقتصر على الشعر وحده؟ أين تتمثل الصحراء في الرواية السعودية المعاصرة؟ وهل للمرأة نصيب في وصف الصحراء وإبراز تعلقها بها؟ كيف كانت نظرتها للصحراء؟ .

2.أثر الصحراء في المثل والقيم:

نظراً لاتساع الصحراء، وطبيعتها التي يغلب عليها القحط والجفاف، كان لا بد من ظهور مجموعة من المثل والقيم التي تناسب حياة الناس في الصحراء، فقد عبّر الشعر الجاهلي في قصائده الكثيرة عن هذه المثل والقيم من أبرزها:

أ ـ الشجاعة: عُدت الشجاعة وقوة البأس ورباطة الجأش وصلابة القلب من أهم صفات العربي في العصر الجاهلي، يقول ابن خلدون: "وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية قائمون بالمدافعة، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح"[3]. وقد ظهرت هذه الشجاعة في صور منها:حب المنايا، مقارعة الأبطال، تشجيع النساء للمحاربين.

ب ـ الكرم: إنّ الصحراء المترامية الأطراف، ذات الطبيعة الحادة والقاسية، ربما شكلت أكبر دافع ليكون الكرم صفة ملازمة لاستمرار تواصل الناس في الصحراء. وقد برزت صور الكرم في الشعر الجاهلي عبر وسائل كثيرة، منها إشعال النار فوق الأماكن المرتفعة يقول حاتم الطائي:

إذا ما البخيل الخِب أخمد ناره أقول لمن يصلى بناري أوقدوا[4]

إلى جانب كثرة الرماد الذي كان يعد دليلاً على الضيافة، يقول عمرو بن قميئة[5]:

عظيم رماد القدر لا ولا مُؤيس منها إذا هو أوقدا [6]

هذه مشاهد إنسانية عمَرت الصحراء، ووهبتها حياة حقيقية ملؤها العاطفة والعقل والخيال، وهي أمور لا يتسم بها إلا المجتمع الإنساني. فعرض في حنايا سطوره مشاهد عن الظعن والظعائن وما يتبعها من شفافية شاعر عانى وجع الارتحال وحنين الشوق، وكيف تحدث الشاعر الجاهلي عن الأطلال، وبكى أمامها محاولاً تعويض ما عاشه من حرمان برحيل الأحبة عبر إذكاء حالة الطيف والخيال.

ج ـ الأسرة: وأخيراً تطرق إلى الأسرة في الصحراء، كما بيّنها الشعر الجاهلي، لأن البدوي ساكن الصحراء لا تتجلي حقيقة علاقاته الإنسانية إلا في أسرته وبين أهله وذويه، لكن هل نجد هذه التمثلات إلا في ثنايا الشعر؟ ألا يمكن أن نجدها في النثر؟.

2 ـ 2 ـ المكان الصحراوي و حركية الإبداع الروائي العربي

المكان الصحراوي، يتمتع بخصائص فريدة كالاتساع والمدى الهائل لمدى الرؤية، وجماليات التدفق الضوئي وزوغان الإبصار والقدرة الخاصة على الجمع بين الحركة والسكون. والصحراء أكثر الأماكن التصاقاً بوجدان سكان المنطقة العربية فقد شهدت ولادة الشعر الجاهلي الجذر الأول للثقافة العربية وشهدت ولادة الدين الإسلامي، وشهد أحد هوامشها، ولادة المسيحية واليهودية.

في القرن العشرين كان اكتشاف البترول وسواه من الثروات دافعا قوياً للاهتمام المتزايد بالصحراء. ففي عام 1963 صدرت رواية رجال في الشمس، وأبطالها حاولوا الارتحال إلى الكويت، وفيها حاول الروائي غسان كنفاني تسليط الضوء على المكان (الصحراء)بصفته عامل جذب اقتصادي، وفي رواية مسك الغزال للروائية حنان الشيخ ثمة حياة موجودة في الصحراء عنصر الأهم فيها هو: المرأة.

رواية فجر الزمن القادم لعبد الله الطوخي تناولت موضوع الصحراء، غير أن رواية فساد الأمكنة للروائي المصري صبري موسى، هي عمل فني متميّز، لأنّها انفردت بعدد كبير من القضايا الخاصة بعالم الصحراء وجمالياتها على المستويات كافةً.

رواية زويل لجمال الغيطاني تجري في جنوب الصحراء المصرية، قرب الحدود السودانية بعيداً عن البحر، وبعيداً عن مجرى النيل، وفيها يحاول شابان اجتياز الحدود إلى السودان ويقعان في ضيافة عشائر الزويل الذين يشكلون جوّاً غرائبياً كابوسياً يتماهون خلاله برجال البوليس السري. أمّا رواية شرق النخيل لبهاء طاهر، فهي تقع في قرية صعيدية ، حيث صراع أسرتين ، وما يعانيه شاب متعلم في هذا الجو من تمزق، كما يمكن اعتبار رواية إدوار الخراط رامة والتنين عملا فنيا راقيا إلى جانب روايته الزمن الآخر صلة بين الأنثى والصحراء.

وعن الصحراء السودانية نقرأ عدداً من الروايات منها الجن خانة [7]، وهي للروائي عمر محمود عباس حيث الرحيل إلى جنوب السودان والعالم الغارق في الجهل والبساطة، ونقرأ رواية جزيرة العوض لعمر الحميدي التي تتحدث عن الصحراء وكثبانها الصفراء التي لا تعرف سوى فصلين : الصيف والشتاء، فرواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب الصالح لم تتطرق إلا بجزء يسير منها إلى الصحراء، هو عبور الراوي الصحراء من قريته إلى الخرطوم، أمّا الصحراء التونسية فتقرأ عنها في رواية السد للروائي التونسي محمود المسعدي، والتي يغلب فيها العجز على تصرفات الناس في الصحراء، ولعل أقرب الروايات الجزائرية إلى الجو الصحراوي روايتا عبد الحميد ابن هدوقة ريح الجنوب و نهاية الأمس.

وقد اهتمّ صلاح صالح بصفات الصحراء كما طرحتها الرواية العربية: "السراب وتلوين الصحراء والارتحال في الصحراء والرمال المتحركة و زحف

الصحراء وزراعة الصحراء المطلقة"[8]، كما قدّم دراسة مفصلة للرواية فساد الأمكنة كنموذج للروايات التي اهتمت بالصحراء وهي للروائي المصري صبري موسى لأنها ذات تقنية روائية عالية ومتقدمة وقدرتها على استثارة عدد كبير من القضايا الفكرية والفنية والتقنية المتعلقة بالصحراء وتقنيات رسم المكان وتوظيف وصف المكان لخدمة القص وإخراج المكان من عزلته وربطه بالعالم.

إذا جئنا إلى الصحراء في شبه الجزيرة العربية، نجد خماسية مدن الملح لعبد الرحمن منيف ،فإنها تقول كل شيء يتعلق بالصحراء العربية من قصة اكتشاف النفط إلى الخلخلة الحضارية الناتجة عن الانتقال المفاجئ من عصر البداوة إلى عصر البترول، وما يرتبط به من تطور تقني شامل؛ وما يُعاب كثيراً على كتّاب السعودية والخليج تقصيرهم في تناول أدب الصحراء، كون الصحراء بلُغتها وثقافتها وقسوتها وجمالها، كلها عناصر أكيدة في أية قصة محليّة الحبكة. طبعاً نذكر بدايات خُماسية عبد الرحمن منيف ونذكر أعمالاً من هنا وهناك، لعل آخرها (طعم الذئب) لعبد الله البصيّص. كل هذا أدب رجالي ما بال المبدعات من النساء السعوديات، ألم يكن لهن نصيب؟ وإن كان موجودا أين يتجلى ذلك؟ وهل رؤيتهن للصحراء تتشابه مع الرؤى الرجالية؟ أين تظهر الخصائص الجمالية للرواية النسوية السعودية من خلال تناولها للصحراء؟ وما قدمت من جديد؟.

2 ـ 1 ـ في الابداع الروائي لأمل الفارن أنموذجاً

ليس عبد الرحمن منيف وحده من الروائيين السعوديين الذين تناولوا تلك المرحلة، فهناك تركي الحمد في رواية شرق الوادي، وفهد العتيق في كائن مؤجل وأبناء الأدهم للمبدع جبير المليحان، ورواية البدوي الصغير للروائية قبول العلوي وأميمة الخميس في رواية البحريات، وآخر الأعمال التي تأتي في هذا السياق وتختلف عنه، رواية أمل الفارن غوّاصو الأحقاف، حيث تتناول حياة الناس

في الأحقاف وهي منطقة غامضة جغرافياً وسياسياً، قبيل تشكل الدولة الحديثة ما يجعل الرواية في سياق الروايات المذكورة هنا هو تناولها حقبة ما قبل النفط. أما ما يجعلها مختلفة عن سابقاتها، فكونها تتوقف عند تخوم تشكل الدولة، ولا تمدّ السرد إلى تحوّلات المجتمع الحديثة، الأمر الذي فعله منيف والحمد والعتيق والخميس.

أ ـ ملخّص الرواية :

تسرد الرواية حياة بشر عالقين بين النخيل والإبل، والصحراء والبحر، هم ليسوا بدواً بمعنى رعاة الإبل الرحّل، وليسوا حضراً، بمعنى سكناهم في مدن أو قرى ليسوا أهل بحر فيكون رزقهم فيه من الصيد والغوص، وليسوا بعيدين عنه، فلا يتأثرون بتقلبات تجارة اللؤلؤ التي كانت شريان حياة بعض أجزاء جزيرة العرب الشرقية في ذلك الزمن.

تصف الفاران في روايتها غواصو الأحقاف[9]، حياة المنطقة، ما هو يومي ومعتاد آنذاك من خلال أهل الجبل و أهل الوادي من أبناء الدم الواحد المتخاصمين تارة، والمتعاهدين على السلم عند شجرة عظيمة مريفة تارة أخرى أي خصبة كثيفة الأوراق دائمة الاخضرار. يذهب بعضهم في قوافل تجارة ويغيب بعضهم في البحر مع للغوص بحثاً عن اللؤلؤ. بينما يبقى من يبقى ليهتمّ بالنخيل، أو يخوض حروب أبناء العمومة، وقد جاءت الرواية لتراوح بين اللغة السردية، واللغة الشعرية، ما جعل النص يتأرجح بين نمطين، دون أن تفلت الحبكة ويتحوّل العمل إلى نص شعري وقد ساعد في ذلك أن شخصيات الرواية كُثر وأبطالها كُثر، ما يعني في الأخير أنها بلا أبطال.

تسرد الراوية زواج امرأة من رجل لا تحبّه، وزواج أخرى من رجل تحبّه وتخيير امرأة في شأن زواجها وزواج رابعة مرغمة. يأتي السرد متخففاً من الأحكام المسبقة. إنها تضيء أعراف تلك الحقبة، التي عاشها الجميع، وتقبلوها نساء ورجالاً

وعبر هذه الحكايات تفتح الفاران في غوّاصو الأحقاف من الأسئلة أكثر مما تجيب وتقدّم سرداً رشيقاً لتفاصيل حياة الناس الدقيقة، أكثر من الخوض في قصص كبرى

ب ـ المضامين و الرؤى:

شبكة واسعة من التفاصيل زمانها الثلث الأول من القرن العشرين وفضاؤها واحة العقيق[10]، في بطن الصحراء بأحيائها الثلاثة المنتمية إلى آل هذال وآل فواز وآل بنيان –الذين يرجعون جميعهم إلى جدٍّ أكبر هو مانع بن هادي؛ الأب والمؤسس– حيث الحروب المزدهرة والغارات المتبادلة بينهم؛ لا تخفت يوماً إلا لتقوم بعده رغم العهود التي يتلونها تحت شجرة السمر؛ الشجرة الأم مريفة. وفي ظل تلك المناخات من العداوة والخصومة وثارات الانتقام المتتابعة والكيد المستمر؛ لا تنفصم عُرى الاشتباك العائلي عن طريق المصاهرة، ولا تعرى العلاقات من مواقف الوفاء والشهامة.

ينخرط غالبية الأفراد في ماء القبيلة الجمعي إنْ غوايةً أو رشاداً، ويتمايز قليلون عن هذا الحس بموقف عقلاني يترفّع عن الدم وأسبابه، ويعلي هؤلاء علاقة القربى ورابطة الجوار فوق نداء التناحر والصراع خصوصاً في المواقف الكبرى العاصفة عندما تحيط بهم؛ فتضرّ بأحدهم أو تنالهم جميعاً وفي وقتٍ واحد شأن السيل قشّاش الذي دمّر المنازل وخرّب المزارع فأتى على حصاد موسمٍ كامل وشأن جائحة الجراد التي أعقبت السيل لتزيد ظروف العقيق فداحةً وعطباً لينكشف معدن الأصالة، وأيضاً الخسّة وضعف النفس.

لقد بسطت الكاتبة الضوء بشكل إبداعي ودقيق على مرحلةٍ، وتاريخٍ، وحياةٍ بمختلف حالاتها وخباياها وهيئاتها الاجتماعية ومناشطها الاقتصادية وتقاليدها الشعبية وفنونها التراثية؛ قاربتْها جميعاً بخفّةٍ آسرة وانسيابيّة لا تعلّق السرد ولا تعتقله عند محطّةٍ من محطّات حكاية واحة العقيق الطويل.

ج ـ الإبداع في الرواية:

يتجلى الإبداع و التجريب من خلال الانسجام مع عوالم الرواية؛ أحداثاً وشخوصاً ومكاناً. وأوّل ما يتبادر، إلى ذهن قارئ الرواية في السعودية عندما يفتح عملاً روائيا جديداً، سؤالٌ مفاده مدى خروج –هذا العمل– عن القالب المعهود والطبخة التي تلوكها بعض الأقلام كلما نفرت إلى الأوراق تسجّل وقائعَ روايةٍ سعوديّة، فالملاحظ في الخطابات السردية السعودية ـ و نقصد هاهنا الرواية الشبانية ـ ذلك التمرد على كل ما هو قديم في نظر المبدعين، فكسر الطابوهات أمسى اليوم نوعا من العصيان على الأعراف و القيم.

هذا لا يعني أن كل الروائيين المبدعين للخطابات السردية قد تمردوا جملة وتفصيلاً فمنهم من هو محافظ ملتزم بقيم الجزيرة العربية المعهودة منذ القديم الضاربة في عمق التاريخ ومنها الكرم والحياء والعفة والأنفة، "لكن الأمر يختلف عند أمل الفاران، حيث لا نجد هذا التمرّد، بل نجد تقديسا و براعة لافتة موّلدةً عملا إبداعيا هائلاً اسمه غوّاصو الأحقاف، حيث يستطيع قارئه باطمئنان أن يقارن حضوره في الفعل الروائي والصنعة الجماليّة بأسماء كبيرة نحو عبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني"[11].

ما قامت به الفاران هو الالتحام بطبيعة المكان وبذاكرته واسترجاعه في سويّةٍ جماليّة تجري في الأرض في الشخصيّات التي تبدّت لحماً ودماً وفرادةً:

ـ **عموش** التاجر الحكيم العاشق الشاعر

ـ **فيحان** بعقدة النقص التي تجعله دنيئاً متآمراً

ـ **العبد جمعان** في صورة الحكمة ومشاعر الأبوّة والانتماء

ـ **شافي** المتقلّب من الضعف واللين إلى القوّة والمحبة والنخوة

ـ **جابر** الغواص وحمولة الخصام التي يدفع حبه ثمنها، وتلا ابنة الخال

ـ **فرجة** ببنائها الجسمي المتين ومحبة الأهل التي لا تتخذل ولا تخذل

ـ **نفلا** درّة العمل البديعة التي ذكرت في مقطع من رواية غوّاصو الأحقاف:" عاشقةً ومتمرّدةً ومنتميةً أبداً للفرح وطقوسه.. **نفلا** التي أوصتْ أمها يوماً بألا تُدفن إن ماتت: أكره المكان الضيّق والصمت والظلمة.. ضعوني على رأس شجرة سمر.. لأرى الشمس والمطر وأسمعكم"[12]. وفي خاتمة الرواية تناص مع افتتاحية التيه لعبد الرحمن منيف:" إنّه وادي العيون "[13]. كأنما هذا الاستدعاء يمثّل لي مكاناً رفيعاً أضع فيه تحفة أمل الفاران الرائعة.

2 ـ 2 ـ غواصو الأحقاف.. مروية صحراوية مختلفة

قال أشرف فقيه: " يُعاب كثيراً على كتّاب السعودية والخليج تقصيرهم في تناول "أدب الصحراء".. كون الصحراء بلُغتها وثقافتها وقسوتها وجمالها، كلها عناصر أكيدة في أية قصة محليّة الحبكة. طبعاً نذكر بدايات خُماسية عبد الرحمن منيف ونذكر أعمالاً من هنا وهناك، لعل آخرها (طعم الذئب) لعبد الله البصيّص. أما هذه الرواية: غوّاصو الأحقاف لأمل الفاران؛ فعمل بديع يستحضر الصحراء بكل تعقيدها الكامن، ويستحضر لغة منيف بل يتفوق عليها في مناطق عدة. إنها عمل جدير بالاحتفاء من ناحية الفكرة والمعالجة"[14].

قال فهد الفهد: "أحببت العنوان بداية، بدا لي محملاً بشيء من الفنتازيا، بالحمولة التاريخية والدينية للأحقاف – موطن قوم عاد– وبفكرة الغوص في منطقة صحراوية، طبعاً الإشارة في العنوان هي إلى امتهان بعض أهل المنطقة الغوص في الخليج في مواسم البحث عن اللؤلؤ"[15].

معنى هذا أنّ المؤلفة بلغتها الرائعة إلى العقيق بأحيائها الثلاثة، لنعيش قصص حب وحرب بين آل هذال وآل بنيان وآل فواز، الرواية مكتوبة بعناية وتستعيد المؤلفة من خلالها أجواء عايشها أجدادنا. فزمن الرواية هو بدايات الدولة السعودية

الثالثة مع بعض الإشارات إلى معارك الملك عبد العزيز مع ابن رشيد، ولكن للعقيق معاركها الداخلية، فالحرب مستعرة بين الهذاليين والبنيانيين، تظهر لنا هذه الحرب جوانب من ذلكم المجتمع، معاني الشجاعة والجبن، الخسة والشهامة، ما تعرضه لنا المؤلفة ليس أقل من حياة كاملة، من المزارع بنخيلها إلى المنازل برواشنها، من السادة إلى العبيد، من الرجال إلى النساء، الحياة والموت، السيل والجراد، الحب والكره، الانتصارات والخيبات"[16].

إنّ رواية غواصو الأحقاف تسترجع تاريخاً قريباً غير منسي.. لكن بلغة جديدة. الرواية لعلها مبنية على موروث الكاتبة عن وادي الدواسر. هناك من أطراف نجد وأعماق الهول الرملي العظيم حيث أساطير كثبان الأحقاف بممالكها البائدة من إنس وجنّ، تكتب الفاران عن الحب والجوع والحرب الثلاثية التي رسمت حياة أجيال إلى أوائل أيام ابن سعود، حيث تزحزت الثوابت وأعيدت رسم ملامح الحياة.

غواصو الأحقاف استحضار هام لزمن لم ينقض إلا راهناً. قبل أن تطل الحداثة برأسها وقبل أن تتغير قوانين كل الألعاب القديمة. زمنٌ ذكرياته الجينية قابعة في قيعان النفوس ما زالت. بين خطوط الجوع والحب والحرب كان إنسان تلك البقعة وذلك الزمن ينازع ليتعرف آدميته. يبحث عنها ليتشبث بها، وأحياناً ليتخلص منها عنوة.. والمبرر واحد: فقد كان يسعى لما يضمن له البقاء.. عمّا يبرره.

غواصو الأحقاف هي محاولة لتبرير الاستمساك بالحياة. إنها مرثية لزمن الرقص في وجه الموت؛ ترقص النساء من خلف مقانعهن، فيما الرجال متكئون على أعقاب بواريدهم رقصات سريعة خاطفة في استراحات قصيرة لا تلبث أن يقطعها أوان الركض فراراً بالنفس من المهلكات.. في انتظار فسحة أخرى للرقص فخراً بالنجاة.

هذه ليست فقط رواية، إنها ذاكرة زاخرة تمنح القارئ فسحة الفرجة في نواحيها ولمس ما ظن أنه لن يرى ولو بين دفّتي كتاب، جاءت بلغة الكاتبة الغنية وسردها الساحر، سوف تعبر الصفحات الأولى بهدوء حتى تخطفك الدهشة وتبقى في حالتك هذه لا تحيد عنها حتى تسدل ستارة النهاية.

هي أوديسة الصحراء، بعثت أساطير البدو وجعلت منها ربّات تقف على أكتاف الجبال وترفرف فوق جريد النخل وتتهادى مع كثبان الرمال، بل إنها تحدو مع مسير القوافل الرائحة والعائدة. بنفس عميق وقلم ناضج، ترصد الروائية أمل الفاران روائح الأصالة وموارد الشوق التي يهفو إليها غواصو الأحقاف والتوق إلى ما كان بعيدا.

الغوص هنا ليس في بحار، بل غوصٌ في الذاكرة. بل ربما غوصٌ في الأنفس المتأرجحة في بلدة العقيق بين الخير والشر والصواب والضلال، تمنح من تربى في بيئة الرواية شعور الانتماء، فمن يزور العقيق لأول مرة، سيولع بها وكأنها نافذة على حكايا الجدات الأصيلة فالأحياء الثلاثة تضم ثلاث قبائل يجمعهم جدٌّ واحد، مانع بن هادي، أورثهم شجرة سمرٍ تُدعى مريفة حيث العهود والمواثيق التي نُقشت على جذعها.

في الأحياء الثلاثة تُدار رحى الحروب، لا تدري مَن الغازي مِن المغزوّ ولا الواتر من الموتور. فالرجال في العقيق "مع صرام النخيل، يكنزون التمر والرماح ،لا يهم من ابتدأها ولا من الأخير. فإن فتيل المشاحنات ما إن تضرمه نفسٌ شقية حتى يأكل ما أمامه ولا يذر، بعد أن نقضوا عهد مريفة، تغيّر الكثير على تضاريس الواحة، بل حتى في أعماق أبناءها، فقد اجتثت الشجرة من وجدانهم"[17].

"وفي الواحة الصحراوية لن تسمح الظروف لفتاة بأن تحتجب فلا تنهض بنصيبها من العمل، ولكي تظل خطوتها حرة فعليها أن تحذر ألا يعلق اسمها في

حكاية سرية"[18]. ما سيشعره القارئ هو الغرق في متضادات الصحراء، فلا يكاد يلمح خضاب الحناء إلا ويجزع من خضاب الدماء، ولا يكاد يبتهج بصرم عذوق النخيل، حتى يقبض صدره صرمُ الرقاب. المعارك تختلط بدموع القلوب التي تخشى أن تصيب رماحها ذوي القربى. بل تختلط بشوك مريفة الذي يخز أرواح النائين عن الحرب ولو بقلوبهم، وهو أضعف الإيمان.

تقول الناقدة بثينة إبراهيم: "إنها تتجه إلى الصحراء، إلى التاريخ، وهي منطقة وعرة بلا شك، ربما لم يكتب فيها سوى الكتّاب الرجال (منيف وتركي الحمد و غيرهما) على حد علمي، لم تكن الصحراء قاسية، اختارت أمل بقعة يحضر فيها النخيل بقوة"[19].

في المنظور النقدي لبثينة إبراهيم أنّ الصحراء تاريخ أي نعم، لكنها بالمقابل منطقة خطرة لا يكتب عنها سوى الرجال المعروفين بالخشونة و الصلابة، فكيف تكتب عنها الأيادي الناعمة المسمى بالجنس اللطيف، و لعلنا نتساءل لما هذا الاهتمام الأنثوي بيئة صحراوية قاسية جافة، ربما لأنها منبع و منبت الأديبة أم ربما هي المعاناة و المأساة التي ينبغي التعبير عنها و عدم كبتها، و لزاماً إخراجها ؟.

2 ـ 3 ـ العتبات في رواية غواصو الأحقاف

من الصفحات الأولى تطالعنا سيرة النأي عن المكان، رجال الصحراء الذين يغادرون ديارهم نحو البحرين لإدراك موسم الغوص. من العنوان والعتبات الأولى للنصّ يبدو أنّ مدار الحكاية هو البحر وسيرة الغوّاصين الذين يولون ديارهم ظهورهم ويحللون نساءهم من قيد الانتظار، ويتعاهدون عند أكبر أشجارهم (مريفة) على التحلل من أحقاد الحروب وديون الثأر التي يحملها رجال كل حيّ من أحياء العقيق الثلاثة على الحيّ المجاور. لكنّ الحكاية التي تيمم وجهها في العتبات الأولى نحو البحرين تنعطف في باقي الصفحات جنوبًا نحو العقيق، فتغوص في عمق الصحراء،

وتنسج خيوطها من قصص أهالي أحياء العقيق الثلاثة : آل بنيان، آل هذال، آل فواز المنحدرين من جدٍّ واحد مانع بن هادي.

أ ـ بنية المكان الصحراوي و دلالته:

المكان في هذه الرواية هو بطلها الأكبر، هو العنصر الفاعل والمؤثر في لغتها وأحداثها وبنية شخصياتها. فالمكان يخلق النزاعات، ويتحكم في الشخصيات ويُعيد تشكيل اللغة الواصفة له ويسيطر على مجازاتها وصورها، ومنه تنبجس الانتماءات التي تنبجس منها الدماء والثارات، تستندُ سيرورة الأحداث على مفهوم الانتماء والهويّة. فللأحياء الثلاثة تاريخ واحد ولكل حيّ من هذه الأحياء روايته الخاصة لهذا التاريخ.

تنتمي الأحياء الثلاثة إلى مكان واحد وجدّ واحد، ويتفرع من هذا الانتماء انتماءات أصغر إلى أبناء هذا الجدّ الثلاثة، ثم انتماءات متفرعّة بحسب الأم، إذ يتحدّ الهذاليون مع الفوازيين في النسبة إلى أم واحدة، وينتمي آل بنيان إلى أم أخرى فيباعد هذا الانتماء الفرعي بين آل بنيان والحيين الآخرين، ويتفرّع الانتماء في داخل كل حيّ أيضا، ففي حيّ آل بنيان ينقسم الأهالي بين الانتماء إلى شيخهم وأبنائه، وبين الانتماء إلى عقيد حربهم أبي شافي وولده. وفي حيّ الفوازيين يتنازع الانتماء الفرعي بشكل خفي وغير معلن بين الإخوة غير الأشقاء:عموش و فيحان.

ويعلو نزاع هذا الانتماء بشكل صريح ومعلن بين نساء قصر وثيل، بين أم عموش من جهة وأم فيحان والعمّة الأرملة أخت الشيخ من جهة أخرى. ويظهر تنازع الانتماءات الفرعية أيضا في حيّ الهذاليين مع إن الرواية لا تذكر شيئًا عن شيخ هذا الحي وبنيه، لكنّها تركّز على بيت صالح الذي ينتمي للهذاليين من ناحية الأب، وإلى البنيانيين من ناحية الأمّ، فتتمزق الأسرة بين الانتمائين، إذ يتعثر مشروع زواج (جابر) الهذالي من (بتلا) ابنة خاله البنيانية بعد أن يحجرها ابن عمها البنياني

فتتزوج منه مرغمة، لكن الأسرة الموزعة بين حيين تتدارك هذا الفشل وتزوّج أختها الصغرى (خفرة) البنيانية لابن العمة الهذالي (جابر) فينقضي النزاع الخارجي ويولد نزاع آخر داخلي نزاع في نفس (جابر) بين حبه لـ(بتلا) وبين واجبه حيال عروسه (خفرة)، وتنازع (بتلا) مثله بين صوت قلبها الذي يذكرها (جابر) حبّها الأول وصوت عقلها الذي يُملي عليها الإخلاص والصبر لزوجها الذي زُفّت إليه صاغرة.

ب ـ صورة المرأة الصحراوية

تحسم النساء انتماءاتهن على عكس الرجال، فالرجال يتوقون إلى الرحيل، (جابر) يلاحق الغوّاصين وينأى عن دياره، (عمّوش) يسير بقوافل التجارة جنوبًا وشمالًا رغم هلع أمّه ولوعة زوجته (نفلا)، ومثله (فيحان) المتعطش للسير بالقوافل، المتطلع إلى تأجيج حروب الحيّ لعلّه يحرز فيها بطولات تعزّز من انتمائه إلى أبيه. أمّا انتماءات النساء فهي أكثر رسوخًا، كل امرأة من نساء العقيق تُشبه نخلة من نخيله، تمدّ رأسها نحو السماء دون أن تنسى رسوخ جذورها في المكان تستمد شموخها وقدرتها على العطاء من رسوخ جذورها في الطين.

يتجلى في المدونة أن لنساء العقيق انتماء أكبر إلى الأرض، يوفقّن بينه وبين انتماءاتهن الفرعيّة للأحياء بلا تنازع. ففي كل بيت من بيوت العقيق امرأة تستبقي رجال بيتها وتحاول أن تثنيهم عن الرحيل؛ أم جابر تمنعه صغيرًا من الالتحاق بالغوّاصين لكنه يمضي مخالفًا رغبتها ويلحق بهم في غفلة عنهم حتى إذا ما ابتعدوا ظهر لهم فألحقوه بالقافلة، وتحاول ثنيه عن قرار الخروج لموسم الغوص حتى بعد أن كبر وتزوج مثلها ابنتها (نفلا) التي يُعذبّها غياب (عمّوش) وتذبل كلما خرج مع قافلته للتجارة.

وحين تتصارع الانتماءات في عالم النساء لا يجدن صعوبة في حسم الصراع والعودة إلى الجذور، (بتلا) تعود مطلقة إلى بيت أهلها ونخيلهم حين تحرقها

الغربة في بيت زوجها (فرجة) تقفز من قصر وثيل بعد أن تُغافل زوجها الفوازي وتركض نحو ديار أهلها آل هذال وتحذّرهم من عزم أهل زوجها الفوازيين على غزو ديارهم، (نفلا) حين تلسعها النميمة بين نساء قصر وثيل، ويمنعها زوجها (عموش) الفوازي من الرقص الذي يجري من روحها مجرى الدم ويفرض عليها قيودًا تهدد انتماءها لا تجد بأسًا –رغم عشقها لعموش– في أن تطلب الطلاق منه كعطية يمنحها إياها في مجلس الرجال.

الحرب التي تصفها الرواية بأنها الموت الوحيد الذي يستطيعون التعامل معه، تشتعل بين الهذاليين وجيرانهم آل بنيان بسبب جسر الهذاليين وحضائرهم التي تتكاثر على الحدّ بين الحيين حتى رأى فيها البنيانيون تطاولًا على ديارهم، وتنتهي الحرب بفعل الطبيعة، حين يجرف السيل الذي أطلقوا عليه اسم (قشاش) بيوت الهذاليين والبنيانيين فيلوذون بسقف واحد، سقف أبناء عمومتهم الفوازيين، فيوحدهم السيل من جديد وتستنبت الأرض الغارقة نزعتهم إلى السلام فينشغلون بإصلاح الدمار في بيوتهم وتعويض خساراتهم عن الغارات وطلب الثأر. لقد حرّضهم فيما بعد هجوم الجراد والجوع التالي له على افتعال الحرب من حين إلى آخر، فإنّ الخراب الذي خلّفه (قشّاش) في الحيين يردعهم من جديد: "لا طاقة لنا بحرب، فلا تشرعوا بابًا سدّه قشّاش"[20].

ج ـ لغة السرد:

تستقي لغة السرد مفرداتها من تفاصيل المكان ومعطياته حين يهرب (شافي) البنياني بأوجاعه نحو (مريفة) شجرة السلم الضخمة، تجسّد لغة السرد مخاوفه من خلال تجسيدها لهيئة (مريفة): "أشجار السلم تشبه مخاوفه؛ جذوعها الصفراء الخشنة كجلد ضب لا تستر عن أي عين خضرة الحياة في قلبها، متفرعة من منبتها متشابكة، وأشواكها الطويلة موجهة لفروعها، أزهارها الصفراء تومئ

له..."[21] ، وحين يتواصى الهذاليون بقتل أبي شافي يرمزون له:" شحموا الفحل" و"فحل النخل أضخمها رأسًا وأطولها سعفًا، يكفي طلعُ فحل واحد نخيلًا كثيرة..."[22]. أما عصا (عموش) التي يراقص بها (نفلا) في الملعب: "تتبعها كعنق ناقة أول السير"[23].

وتعبيرًا عن أثر الكلمات التي أوجعت بها أم (خفرة) زوج ابنتها جابر: "طحنته في رحى لوم ثقيلة"[24] وهكذا لا تكتفي اللغة بأن لا تنفصل عن عوالم المكان، بل تستند عليه بشكل شبه تام وتتشكل من خلاله، فسرد عوالم القبائل الصحراوية وتوظيف الكثير من المفردات والعادات بطريقة جيدة و أيضا مزج الغرائبية المكانية للصحراء بالأحداث التاريخية المعروفة – في اعتقادي أن ذلك أعطى القصة بعدا جميلا وأطر الفضاء الزمني.

4 ـ خاتمة:

نجد الصحراء تتمثل في العديد من الإبداعات السردية لأمل الفاران، و هذه المرة في روايات أخرى مثل:كائنات من طرب، وهي جديرة بالدراسة مستقبلاً والتي تستفتحها بالمقولة التالية:" ما تبارك في أوّل عمره،ولا هو بمتبارك في تاليه"[25]، عبارة موغلة في شعبيتها، نطق بها (عبيد) الشقيق الأكبر لعامر المفقود.

هذا التعبير الجارح بكل تداعياته تشجع الأخ الأصغر (خلف) ليقول: (طول عمره (داشر)، هذا العراء والذي هو الصحراء بقساواته، أصبح شكلا من أشكال الأدب، يتسمّى به هذا الأخير باعتبار خصوصيته، إلا أنّ التشكلات الفنّية للصّحراء في النص الأدبي تتجلى أكثر سرديا إذ تضطلع الرّواية بالاشتغال عليه معرفيا وموضوعيا. وقد ألهمت ثيمة الصحراء قرائح الروائيين العرب.

جاءت الخطات السردية المتبنية لبيئة الصحراوية بصور مستملحة عن مكان ظل مُهمشا حينا من الزمن، وحولت عوالمه المفتوحة على الأسطورة والخرافة

والتيه والصمت والغيب إلى علامات ناطقة بزخم المعنى وغواية الحكاية المسكوبة في تصاميم النصوص وخرائط السرود، ما جعلها تُسهم في إعادة تشكيل وتفكيك المركز والفضاء الأول (المدينة)، ليتحول الهامش إلى مركز يزاحم بكشف المعتم والمعمى والمنسي، ويكسر النمط السائد الذي شرعن للرواية كوريث شرعي ووحيد للمدينة.

الهوامش:

1ـ التمثل، من مثل له الشيء أي صوره له حتى كأنه ينظر إليه وامتثله أي صوره.

2 ـ منطقة صحراوية و منها صحراء الربع الخالي و صحراء الدهناء في السعودية.

3 ـ حاتم الطائي شاعر عربي جاهلي (توفي 46 ق. هـ / 605 م) اشتهر بكرمه وأشعاره و جوده

4ـ ديوان حاتم الطائي شرح أبي صالح بن مدرك الطائي – طبعة دار الكتاب العربي ،ص:7

5 ـ عمرو بن قُمَيئَة بن سعد بن قيس (179 ق.هـ–85 ق.هـ/448–540 م) هو شاعر جاهلي .

6 ـ مها قنوت، الصحراء في الشعر الجاهلي،مؤسسة الوحدة للنشر دمشق ، سوريا،2018،ص:56

7 ـ اسم لأحد الوديان في الصحراء السودانية.

8ـ وليد بن حمد الذهلي، جمالية الصحراء في الرواية ، دار جرير للنشر، الأردن،2013،ص:58

9 ـ تعني لغة كثبان الرمال العظيمة. والأحقاف جغرافياً، منطقة واسعة بين حضرموت، وعُمان.

10 ـ واحة البقيع محافظة تابعة لمنطقة الباحة غير بعيدة عن المدينة، مدفن الكثير من الصحابة.

11 ـ وليد بن حمد الذهلي، جمالية الصحراء في الرواية العربية، مرجع سابق،ص:77

12 ـ أمال الفران، غواصو الأحقاف، دار الرياض، السعودية،2011،ص:56

13ـ عبد الرحمن منيف، مدن الملف، دار الملك فهد، الرياض،2010،ص:2

14 ـ مرجع سابق، وليد بن حمد الذهلي،ص:89

15 ـ حسين، خالد حسين ، في نظرية العنوان، دار الكوين . جمشق ، الطبعة 1، 2007 . ص 6

16 ـ أمل الفاران، غواصو الاحقاف،ص:56

17 ـ جميل حمداوي، نظرية العنوان، دار الفكر،بيروت،2000، ص 83

18 ـ أمل الفاران،غواصو الأحقاف،ص:56

19 ـ الرواية، ص:11.

20 ـ الرواية،ص:108

21 ـ الرواية،ص:61

22 ـ الرواية،ص:99

23 ـ أمل الفاران، كائنات من طرب، مطابع الملك فهد، الرياض،2012،ص:66

24 ـ المرجع نفسه، ص45.

25 ـ المرجع نفسه،ص:89.